الحدث المناخي والتحول السياسي: هل من علاقة؟

لوبنى زبير
دكتوراه تخصص تاريخ وحضارة
جامعة القاضي عياض، مراكش، المغرب

كريم العرجاوي
دكتوراه تخصص تاريخ وحضارة
جامعة القاضي عياض،مراكش، المغرب

ملخص :

هذه المحاولة هي رؤية تاريخية، نوضح من خلالها دور التطرفات المناخية في فهم وتفسير الأحداث السياسية لمغرب القرنين 16 و 17 م، وهي مقارنة قائمة على الربط بين التحولات السياسية التي عرفها المغرب خلال تلك الفترة، و علاقتها بالأحداث المناخية، وذلك وفق متلازمة عامة تراعي أهمية المعطى الطبيعي في خلق نوع من اللاتوازن بين القوى السياسية المتصارعة على السلطة:

حدث مناخي ← انهيار اقتصادي ← تدهور اجتماعي

خلل سياسي

لقد شكل العامل المناخي، أحد أهم الأسباب المساهمة في قيام دول وانهيار أخرى، فلعل ما شهده العقد الثاني من القرن 16م ومطلع القرن 17م من تطورات سياسية له ارتباط . ولو في حدود معينة . بالأزمات المناخية التي عرفها المغرب خلال تلك الفترات، مما يجعلنا نفترض وجود علاقة بين أطوار الدولة السعدية والأزمات الطبيعية التي عرفه عهدهم خاصة التطرفات المناخية، وذلك بوضعهما في سياق واحد، وفق منظور كرونولوجي، مما يعطينا خطاطة أولية توضح أن تاريخ السعديين مر بثلاث دورات: أزمة البدايات تزامنت مع مرحلة التأسيس، تلاها انتعاش وصلت فيه عظمة الدولة إلى أوجها مع أحمد المنصور فأزمة طويلة انتهت على إثرها الدولة، ممهدة بذلك الطريق لسلطة جديدة هي سلطة الأسرة العلوية، تصادف قيامها هي الأخرى بالمأساة التي عصفت بمغرب ما بعد منتصف القرن 17م.

Résumée :

Ce regard historique est une tentative à travers laquelle nous essayerons de démontrer le rôle des changements climatiques dans la compréhension et l'explication des événements politiques qui se sont déroulés au Maroc du 16ème et 17ème siècles. Il s'agit en effet , d'une étude comparative basée sur l'interaction entre les événements politiques qu'avait connus le Maroc à l'époque et les changements climatiques. C'est une analyse qui tient compte de l'importance du facteur naturel dans la création d'un déséquilibre entre les différents protagonistes et rivaux politiques de l'époque.

Le facteur climatique était sans doute déterminant dans la naissance d'une nouvelle dynastie régnante et la disparition d'une autre. Nous considérons que c'est une règle qui s'applique parfaitement au cas de la naissance et l'évolution de la dynastie Saàdienne , entre la deuxième moitié du 16ème et le début du 17ème siècle. Il s'agit en effet d'un schéma évolutif qui a marqué l'histoire des saadiens à travers trois phases :

1- Les difficultés du début, qui coïncident avec la naissance de l'Etat.

2- L'épanouissement de l'Etat, qui a connu son apogée avec Le Roi Ahmed Al Mansor.

3- Une longue crise qui a entrainée le déclin de cette dynastie.

La nouvelle dynastie Alaouites qui a succédé les Saadiens a elle-même commencé son règne par une crise climatique qui a secoué le Maroc de la deuxième moitié du 17ème siècle.

تقدم دراسة الأزمات المناخية، مشروعا جديدا لفهم الأسباب العميقة لانهيار دول وقيام أخرى، فرغم صعوبة قبول التفسير"**الطبيعي**"، الذي يحتاج إلى تدعيمه بتفسيرات أخرى ديمغرافية واقتصادية، فإن التساؤل حول هامش تأثير الأزمات المناخية في التحولات السياسية يظل مشروعا، خاصة وأن المتمعن في التاريخ السياسي للمغرب يلاحظ العلاقة المتينة بين الأحداثالسياسية والأحداث المناخية.

ولعل هذا ما انتبه له عدد من المهتمين[1]، حيث شكل المناخ وتطرفاته، وما يرافقه من أزمات صحية، عامل من العوامل المؤثرة على السلطة والتحول السياسي[2].

يشكل مغرب القرنين 16مو17م فترة زمنية متميزة، يمكن التعويل عليها لملامسة جوانب عديدة من هذه العلاقة، خاصة وأنها فترةالتحولات والتوترات السياسية بامتياز، فلعل ما شهده العقد الثاني من القرن 16م، ومطلع القرن 17م من تطورات سياسية له ارتباط –ولو في حدود معينة- بالأزمات المناخية التي عرفها المغرب خلال تلك الفترات، مما يجعلنا نفترض وجود علاقة بين تاريخ الدولة السعدية وأزماتها الطبيعية، وذلك بوضعهما في سياق واحد، وفق منظور

كرونولوجي، مما يعطينا خطاطة أولية توضح أن تاريخ السعديين مر بثلاث دورات: أزمة البدايات تزامنت مع مرحلة التأسيس، تلاها انتعاش وصلت فيه عظمة الدولة إلى أوجها مع أحمد المنصور، فأزمة طويلة انتهت على إثرها الدولة، ممهدة بذلك الطريق لسلطة جديدة، تصادفت هي الأخرى والمأساة التي عصفت بمغرب ما بعد منتصف القرن 17م.

يمكن رصد هذه العلاقة انطلاقا مما يوضحه الجدول التالي:

الجدول رقم1: الحدث المناخي وعلاقته بالتحول السياسي بمغرب القرنين 16م و17م

السنة	الأحداث المناخية	الأحداث السياسية	انعكاسات الأزمة
1520 - 1524	كارثة مطلع العقد الثاني من القرن 16م. ↓	تأسيس الحكم السعدي ↓	دوراتجفاف متلاحقة نتج عنهاحدوث المجاعات وانتشار الأوبئة، أو ما عرف بأزمة 1520-1524م.
1603 - 1608	جفاف مطلع القرن 17م. ↓	حروب أهلية، بداية انهيار السلطة السعدية. ظهور حركة ابن أبي محلي (المهدوية) ↓	انهيارإقتصادي وديمغرافي، ناتج عن مجاعات وأوبئة خطيرة
1661 - 1662	مجاعة العقد السادس من القرن 17م	توطيد الحكم العلوي.	أزمة غذائية وديمغرافية، خاصة في المناطق الشمالية.

يكشف لنا الجدول مجموعة من الأحداث التي تبين التلازم بين التحولات السياسية والأزمات المناخية بمغرب القرنين 16و17م، فكيف يمكن أن نفسر هذه المتلازمة؟ وهل للمناخ أثر على الواقع السياسي لمغرب القرنين 16و17م؟.

هذا ما سنحاول توضيحه، انطلاقا من رصد أثر العلة المناخية في قيام وانهيار الدولة السعدية، وتبيان العلاقة بين أزمة 1071-1072هـ/1661-1662م وتوطيد الحكم العلوي.

I-أزمة البدايات: مجاعة 1520-1524م وترسيخ النفوذ السعدي

يشد انتباه الدراس لظروف قيام الدولة السعدية، التزامن بين هذا الحدث السياسي والأحداث المناخية التي رافقته، إذ يسجل حضور العامل الطبيعي ووقوفه إلى جانب الأشراف السعديين في صراعهم من أجل الوصول إلى الحكم، فكيف يمكن أن نفسر هذا الحضور؟ وهل فعلا يعد العامل المناخي أحد أهم العوامل المساهمة في قيام الدولة السعدية؟.

أ- الجفاف و الأزمة[3]

يذكر برناردو رودريكس (B. Rodrigues) صاحب حوليات أصيلا (1508-1534م) المعاصر للأحداث، ضمن الفصل الخامس والسبعون من كتابه، المعنون بـ: "**عن مجاعة 1521م وكيف باع المسلمون أهلهم**"، أن مجاعة سنة 1521م (927هـ) التي عرفها المغرب وكل إفريقيا كان السبب فيها جفاف السنة قبلها (926هـ/1520م)[4]. وقد كان تأثير الجفاف بالمغرب أقوى وأحد من تأثيره بشبه الجزيرة الإيبيرية التي عانت بدورها في نفس الفترة الجفاف والمجاعة، وذلك حسب المؤرخ أندرد (de Andrade) عائد إلى كون مناخ إفريقيا أكثر جفافا وحرارة من مناخ الجزيرة مما جعل مجاعة 928هـ/1521م كارثة حقيقية[5]، أو كما سماها محمد المهدي الفاسي "**الجوعالكبير**"[6].

ومما يزيد من أهمية ووقع تأثير الجفاف هو اعتماد أغلب المغاربة على المحصول الزراعي، سواء كانت الأراضي بورية أو سقوية، لأن الماء هو المحدد الأساسي لكميات الإنتاج ولأن قلة التساقطات تتسبب في تقليص الإنتاج الغذائي، وتقلص هذا الأخير يؤدي إلى حدوث المجاعات فيتراجع المستوى الصحي للمغاربة وتنتشر الأوبئة مما يؤدي إلى انهيارات ديموغرافية كبيرة[7].

استتبع جفاف ومجاعة 926-927هـ/1520-1521م مجاعة أخرى ووباء[8]، ومن المحتمل أن توالي المجاعات راجع لاستمرار الجفاف[9]، فالمصادر لا تشير إلى حدوث تساقطات أو ما يفيد بذلك. وفي تعبير روديكس (B. Rodrigues) القوي دلالة عن شدة الكوارث وعن الأزمة التي بدأت تتبلور بفعل تتابع عناصرها في حيز زمني ضيق وتراكبها بدءا من جفاف 926هـ/1520م، يقول روديكس (B. Rodrigues): "**سئمت من الحديث عن سنة إحدى وعشرين، بسبب ما عرفته من محن ومعاناة، وكنت أود الانتقال إلى السنة التالية توقعا مني أنها ستكون أحسن...غير أن المصائب والمعاناة التي صاحبت بداية سنة اثنين وعشرين جعلتنا ننسى ما عانيناه خلال السنة السابقة. فقد انعدمت الأقوات في بدايتها،...كما عرفت بداية السنة تفشي وباء الطاعون بشكل واسع، بحيث قلت الأماكن التي لم يشملها بالفواجع، ولم يختطف منها جل سكانها**"[10].

حصدت المجاعة الثانية (928هـ/1522م) كل من نجا من المجاعة السابقة بفضل تدبيره وبفضل الحبوب المخزنة[11]. وفي نص دو سوسا (de Sousa)[12] يتضح الخلط الذي وقع فيه المؤرخ في ضبط تواريخ الكوارث وتتابعها، فهذا الأخير يجعل بداية المجاعة سنة 928هـ/1522م، بسبب جفاف السنة قبلها في حين أن بدايتها كانت سنة 927 هـ/1521م كما سبق، ويفسّر تحديد دو سوسا (de Sousa بتراكب الكوارث الطبيعية التي أصابت المغرب ولتلاحق الواحدة تلو الأخرى في سنوات متصلة، كما أن روديكس (B. Rodrigues) في نصه

السالف يخبرنا بحدوث مجاعة أخرى سنة 928هـ/ 1522م تسببت في الطاعون الذي عرفه المغرب في نفس السنة، وربما هي التي يقصدها دو سوسا (de Sousa. نفس الأسباب تفسر الارتباك في ترتيب الكوارث المسببة للأزمة لدى ابن القاضي[13] إذ يجعل الغلاء والمجاعة والوباء الذين عرفتهم سنة 927هـ/ 1521م سابقين عن الجفاف، في حين كان العكس وفي سنوات متتالية وليس في سنة واحدة.

أما الناصري فقد كان أكثر تدقيقا في تحديد السنوات ومراحل تطور الأزمة: "**في سنة ستة وعشرين وتسعمئة انحبس المطر بفاس والمغرب واضطر الناس إلى استخراج السواقي من الأودية والأنهار لسقي زرعهم وثمارهم، وفي سنة سبعة وعشرين بعدها كان الغلاء والجوع الكبير الذي صار تاريخا في الناس مدة، وفي سنة ثمان وعشرين بعدها كان الوباء بالمغرب، سنة الله في خلقه**"[14].

2- كيف تمكنت السلطة السعدية من مواجهة الأزمة والاستفادة منها؟

نتوفر على ثلاثة نصوص مصدرية تنبه إلى ارتباط الأزمة بدخول السعديين إلى مدينة مراكش، أولا نص برناردو رودريكيس (B. Rodrigues) يشير إلى أن الشريف استغل ظروف خسارة مملكتي فاس ومراكش لآلاف البشر للتحكم في مراكش التي وجدها شبه مقفرة:"**فقدت مملكة فاس ومراكش بسبب(ها) آلاف البشر، كما أن الشريف استغل تلك الظروف العصيبة وتحكم في مراكش،...وقد وجد تلك المدينة الذائعة الصيت شبه مقفرة فتزوج إحدى بنات الملك، واستحوذ على السلطة بها، وبمرور الوقت...، تحكم في رقاب الجميع، وساس البلاد دون حسيب أو رقيب، كما هي حاله اليوم**"[15].

والنص الثاني لابن القاضي ربط فيه بين الكوارث ودخول الشرفاء لمراكش: "**كان بالمغرب غلاء عظيم ومجاعة مفرطة ووباء جارف ولم ينزل في هذه السنة نقطة مطر (927هـ)ودخل سادتنا الشرفاء مراكش**"[16].

وأخيرا نص دييكو دي طوريس(D. de torres) يوضح فيه أنه بالرغم من أن المجاعة والوباء أساءا كثيرا إلى الشريفين فإن الأخيرين لم يدخرا جهدا لتوفير الطعام للناس بمناطق نفوذهما[17]:**"كان الشريفين في ذلك العهد قد عزما على اتخاذ لقب ملكي إفريقيا، فاعترف المغاربة بقداستهما المزيفة وبمكرهما، حدث ذلك حوالي سنة إحدى وعشرين وخمسمائة وألف، حين انتشر الوباء والمجاعة بحدة كبيرة في المنطقة، ...دام الوباء سنة كاملة وأساء إلى الشريفين، لأن الشعب كان يعتقد بأن الله ومحمدا أرسلا الوباء بسبب خطايا هذين الجبارين، انتقاما لموت ملك مراكش،...غير أن الشريفين تصرفا بحذر كبير جعلهما يتوفقان في جميع أعمالهما، فلم يدخرا وسعا ولا نفقة للحصول على المؤن بأثمنة معقولة، وكان أكثر الناس حصولا على الطعام هم أهل مراكش وتارودانت وسائر المناطق الخاضعة للشريفين"**[18].

يستفسر كل من روزنبرجي والتريكي (B.Rosenberger, H.Triki) في دراستهما حول المجاعات والأوبئة بالمغرب خلال القرنين 16 و17م عن كيفية تمكن السعديين من مواجهة المجاعة، فيطرحان فرضيتان أولهما: هل يمكن أن نتحدث- كما هو بالنسبة للجانب العسكري- عن مساعدات غذائية مرسلة من طرف الأتراك؟ ثانيهما: هل الفضل راجع إلى مؤسسة أثبتت نجاعتها في الجنوب المغربي خاصة بالأطلس الصغير هي مؤسسة خزانات الحبوب الجماعية: "أكادير" أو "اغرم"؟.

استنادا إلى إشارة رودريكس (B. Rodrigues) حول انعدام وسائل وإمكانات جلب الأقوات من الخارج،يُستبعد احتمال استفادة المغاربة من مساعدات خارجية تركية أو أجنبية بصفة عامة[19]، واعتمادا على ملاحظة دو سوسا(de Sousa) حول نفاذ الحبوب المخزنة والمخبأة عند حدوث المجاعة الثانية[20]يتأكد لدينا الإستعانة بالحبوب المخزنة التي نفذت عند حلول مجاعة ووباء 929هـ/1522م، لهذا فإن نص كتاب روضة التحقيق في ذكر مناقب أبي بكر الصديق لعلي بن الحسين لا يبدو أنه يحمل فقط دلالة عن فرار الشريف أحمد

الأعرج من الوباء في اتجاه أقا سنة 932هـ/ 1525م وإنما أيضا البحث عن موارد إضافية، وهو ما يعكسه اشتغاله باستخراج المعادن من منجم تامدولت[21]، ثم بعد سنتين حسب نفس النص عاد المولى أحمد الأعرج إلى مراكش[22] التي وجدها فارغة[23] ومتمردة بقيادة بوشنتوف فقضى على التمرد وملأ الفراغ الديموغرافي الذي أحدثته المجاعة والوباء بقبائل موالية جلبها عند عودته إلى مراكش من سوس[24].

تمكن السعديون من الاستفادة من الأزمة لضعف تأثر مناطقهم منها، فحسب ما توصلنا إليه لم نجد ما يفيد بتضرر القسم الجنوبي من المغرب باستثناء إشارة عن فراغ مدينة مراكش[25] استفاد منه السعديون أيضا، بعكس ما حصل لسلطة الوطاسيين فقد كان القسم الشمالي من المغرب الأكثر تضررا من الجفاف وما استتبعه من إزم، كما أن الوجود البرتغالي بالمغرب وإن كان يستفيد من المساعدات التي تصله من البرتغال والتي كانت تعاني بدورها من أزمة الخبز فإنه تضرر بدوره من الجفاف والمجاعة، ودليل ذلك انحصاره في الثغور المحتلة سابقا وإخلاء الحامية البرتغالية لحصن أكوز سنة 932هـ/1525م بسبب ضغط السعديين ولقلة فوائده، فانعدمت بذلك الفائدة من الثغور وأصبح التخلي عنها مقترحا مطروحا.

إذن ساعدت الكوارث بانعكاساتها الديمغرافية والاقتصادية على اختلال توازن القوى، فمنطقة النفوذ السعدي كانت أقل تضررا من مناطق النفوذ الوطاسي والبرتغالي، وإذا قمنا بمقارنة بين سلطة الوطاسيين انطلاقا من أخبار الحسن الوزان والسلطة السعدية انطلاقا من أخبار دييكو دي طوريس(D. de Torres)، سنلاحظ أن الحسن الوزان يصف في مواقع عديدة الملوك الوطاسيين **بالعاجزين**[26] وأن **مداخيل خزينتهم ضعيفة جدا**[27]، في حين يصرح دييكو دي طوريس (D. de Torres) أن الشريفين لم "**يدخرا وسعا ولا نفقة للحصول على المؤن بأثمنة معقولة، وكان أكثر الناس حصولا على الطعام هم أهل مراكش**

وتارودانت وسائر المناطق الخاضعة للشريفين"[28]، فأصبح المجتمع ينظر إلى الشرفاء السعديين كالمنقذين: المنقذين من اعتداء النصارى برفع شعار الجهاد ومن حالة الضعف السياسي والمنقذين أيضا من الجوع بتوفيرهم الطعام.

هكذا نصل إلى خلاصة مفادها أن السلطة السعدية كانت أكبر مستفيد من الجفاف وما سببه من كوارث، فالانتماء الجغرافي للسعديين ومجال انطلاقهم ساعدهم كثيرا على مواجهة انعكاسات ضعف التساقطات المطرية، حيث من المعلوم أن المناطق الصحراوية تكون الأقل تضررا من قلة التساقطات أو انعدامها بحكم اعتمادها على تخزين الأقوات والسقي، في وقت أضعف فيه الجفاف القِوى المنافسة وأصبح واضحا -كما رأينا- التباين بين القدرة على مواجهة الأزمة بين سلطة في طور الضعف وأخرى في طور النشأة[29].

ومن المعبِّر، كما برهن روزنبرجي والتريكي (B.Rosenberger, H.Triki) عن تحول ميزان القوى[30]، أن نجد إحدى الشخصيات التي برزت بوضوح خلال المجاعة: يعقوب بن الغربية[31] يفر من أزمور ويتملص من ولائه للبرتغاليين ويلجأ إلى الشريف السعدي[32] فمثل هذه الشخصيات تتحسس التغيير وتتبع حسب مصالحها من سيكون أقوى مستقبلا.

II- أزمات مطلع القرن 17م وبداية النهاية

ورد في كتاب الفوائد الجمة:"وفي سنة اثني عشرة وألف (1603م)، بلغني وفاة أبي العباس المنصور ملك المغرب في هذا العصر رحمه الله، وكانت وفاته بمدينة فاس...فنزل الأرض بذلك ما نزلها من الفساد والفتن ما نالها طاش لها الوقور...ووضع النفيس وارتفع الخسيس وفشا العار وخان الجار ولبس الزمان البؤس وجاء بالوجه العبوس وأوردنا الاختلاف ونضب ماء الوجوه والائتلاف وطأطأ الحق رأسه وأخنى المحق نفسه...ووردت المهالك وسدت المسالك وعم الجوع...فإنا لله وإنا إليه راجعون فيا لها من مصيبة ما أعظمها"[33].

بهذه الأوصاف ينقل لنا عبد الرحمن التمنارتي الأوضاع السياسية لمغرب ما بعد أحمد المنصور السعدي، فهل لهذه الأوضاع علاقة بالأزمات المناخية والأزمات الصحية التي عرفها المغرب خلال نفس الفترة؟.

الملاحظ أن معظم الباحثين في تاريخ الدولة السعدية، لم ينتبهوا للعامل الطبيعي في تفسيرهم للانهيار السريع الذي وقع في جهاز المخزن السعدي، فاقتصرت تفسيراتهم على ما هو بشري، وعلى اعتبار الصراعات بين الإخوة السبب الوحيد في ذلك الانهيار[34]؛ غير أن هذه الصراعات لم تكن في حقيقة الأمر، سوى ترجمة سياسية لما وقع في المخزن من اختلال فادح وعميق، ساهم فيه المكون الطبيعي بدرجة كبيرة إلى حد ما.

ولعل هذا ما طرحه أحد المهتمين[35]، عبر تقديمه قراءة جديدة لتاريخ المغرب السعدي، مستحضرا فيها أثر العنصر الطبيعي كأحد العوامل التي لعبت دورا أساسيا في هذا التاريخ، فإذا كانت الكوارث الطبيعية التي شهدها مغرب العقد الثاني من القرن 16م، قد مهدت الطريق أمام السعديين للوصول إلى السلطة، فإنه على ما يبدو، شكلت في جانب آخر، أحد العوامل المؤدية إلى اضمحلالهم مع بداية القرن 17م. ويمكن أن نرصد مساهمة العامل الطبيعي في انهيار السلطة السعدية انطلاقا من ملاحظتين: الأولى تتعلق بطول أمد الأزمات التي عرفها النصف الأول من القرن 17م، وتواليها لفترات متعددة. والثانية تتعلق بتراجعالأسس المادية للدولة السعدية، كنتيجة لتلك الأزمات الطويلة الأمد.

1- وفاة المنصور وبداية أزمات مناخية طويلة الأمد

شكلت السنوات الجافة التي شهدها مطلع القرن 17م، أحد أهم العوامل المؤدية لضعف المخزن السعدي، ولعل ذلك مرده لطابع التواتر والاتصال فيما بين هذه الأزمات لأكثر من سنة،وهو الشيء الذي لم يسمح للمخزن السعدي بالتقاط

أنفاسه، فما أن تنتهي انعكاسات الأزمة المناخية الأولى، حتى تليها أزمة أخرى أشد وأقوى.

فبعد الجهد الكبير الذي بذله السلاطين السعديين في بناء دولتهم، والذي توج بعصر وصفه المؤرخون ب"**الذهبي**" مع السلطان أحمد المنصور (986-1011هـ/1578-1603م)،غلبعليهلاستقرار السياسي والرخاء الاقتصادي، ستبدأ الإرهاصات الأولى لاضمحلاله مع نهاية القرن 16م، وبالضبط مع الوباء الخطير الذي عصف بالمغرب سنة 1006هـ/1598م[36]، حيث بدأ الضعف يدب في سلطة المنصور، وظهرت معه تمردات القبائل؛ "لقد أصبح شخص السلطان مهدد من كل صوب، ففي الداخل وباء وفتن وتخريب للمعامل وغياب السلطة في أكثر من جهة، وفي الخارج قوى متربصة"[37]، وهو ما جعل المنصور يضطر إلى إخلاء عاصمته مراكش[38]. لتتوج هذه المحن بالمجاعة الرهيبة لأعوام 1011-1016هـ/1603-1608م، والتي انطلقت ووفاة أحمد المنصور، الذي راح هو الآخر ضحية للوباء المنتشر في البلاد[39].

أعقبت هذه الأزمة، أزمات أخرى جديدة، فمن أصل عشرين أزمة عصفت بالنصف الأول من القرن 17م، سبعة عشر منها كانت أزمات متصلة، بحيث لم يخلو أي عقد من أزمات مناخية جافة، باستثناء الأربعينيات التي شهدت تحسنا في الأوضاع المناخية. وتعد الأزمات الحقيقية تلك التي تتلاحق سنتان جافتان متتاليتان (1022-1023هـ/1613-1614م)، أو ثلاث سنوات فأكثر (1011-1016هـ/1603-1608م) (1035-1038هـ/1626-1629م) (1061-1063هـ/1651-1653م)[40]. وقد كان لتوالي هذه السنوات الجافة نتائج خطيرة على المستوى الاقتصادي والاجتماعي[41]، خاصة وأنها خلفت نزيفا ديمغرافيا حادا، جاعلة بذلك النقص السكاني السمة الغالبة على تعداد المغرب البشري[42]، وهي نتائج لعبت دورا أساسيا في الاضطرابات السياسية التي ستعرفها المرحلة؛ فهذا عبد الملك الذي خلف زيدان سنة

1036هـ/1627م عانى من المجاعة التي وقفت ضده في صراعه مع إخوته على العرش، "**ولم يكن في تفاقم المجاعة ما ييسر له** (**أي عبد الملك ابن زيدان**) **مراده وأوشك الناس أن يخرجوا عليه لانعدام القمح**"[43].

لا نروم من خلال استعراض هذه الأزمات السقوط في حتمية عمياء، نربط من خلالها أفول نجم السعديين بالعلة المناخية، لكون العامل البشري والصراعات السياسية شكلت السبب الرئيس في هذا الأفول، بقدر ما نهدف إلى إثارة الانتباه إلى جانب أغفله الدارسون في فهم الأسباب العميقة لتراجع المخزن السعدي، فالمسألة الديمغرافية[44]، والانهيار الاقتصادي، والتأزم النفسي، كلها عوامل تراكمت فيما بينها، وتداخلت، لتأثر على الوضع السياسي المتأزم آنذاك، مانعة الدولة السعدية من التقاط الأنفاس، فما أن تنتهي أزمة مناخية، حتى تعقبها أزمة جديدة أشد وأقوى، فتأثر على الوضع المادي للدولة، وعلى إمكانياتها الجبائية.

2- تراجع الأسس المادية للدولة السعدية

أكد أحد المهتمين على أن الخاصية الأساسية التي تتمتع بها الدولة المغربية عبر مراحلها التاريخية، هو تميزها بعدم الاستقرار السياسي؛ وفي محاولة لفهم أسباب هذا التميز، استحضر الباحث التفسير الاقتصادي الذي يرى أن الضعف المادي للدولة المغربية جعلها تعاني باستمرار من عدم الاستقرار، وبأنها كانت دائما تعيش في أزمة اقتصادية[45].

ذلك أن البنية الاقتصادية للسلطة السعدية، كانت قائمة على الحياة الزراعية التي تسمح للدولة بالحصول على الموارد، وإن لم تكن دائما كافية، إلا أنها كانت تساهم في الكثير من الأحيان في الحفاظ على استمراريتها، ويتجلى ذلك على الخصوص في أنه في الوقت الذي تشح فيه الموارد المالية الخارجية المستمدة من التبادل التجاري والغزو، فإن الدولة المغربية كانت تستطيع الحفاظ على استمراريتها من خلال الاقتصار على الموارد المستحصلة من النشاط الفلاحي،

بحيث شكلت الضرائب على الإنتاج الفلاحي والحرفي،المورد الأساس للمداخيل المنظمة والثابتة لدول المغرب[46]؛ "**فالفلاح في مجموع النظام الزراعي في البادية المغربية – كان– مجرد مورد للخزينة**"[47]. وعليه لعب النشاط الفلاحي دورا مهما في تأمين موارد الدولة، ليس من خلال تزويدها بالضرائب التي غالبا ما كانت تتخذ شكلا عينيا فقط، وإنما في ضمان استمرارية الكثير من المدن التي كانت مركزا للتجمعات الحرفية، وحلقة من حلقات التبادل التجاري سواء على الصعيد الداخلي أو الخارجي[48].

إن هذا الارتباط بين موارد الدولة والنشاط الزراعي، الذي هو الآخر مرتبط بالظروف المناخية، جعل من الأزمات المطرية عاملا أنهك المخزن السعدي، واستنزف طاقاته الجبائية والعسكرية والسياسية، فعلى الصعيد الجبائي، تقلصت مداخيل الدولة، بعد أن عرفت نوعا من الاستقرار زمن المنصور الذهبي، كما تراجعت الأنشطة الاقتصادية، فالانهيار الديمغرافي كان عادة ما يتسبب في ظاهرة الخلاء النسبي (خراب العديد من المدن والقرى، وتراجع العديد من معالم العمران والاقتصاد الزراعي القائم على الاستقرار، في مقابل تفشي البداوة وتوسع الاقتصاد الرعوي وشبه الرعوي)، وأصبح بذلك من المستحيل تأمين المداخيل الجبائية من قبل السكان الذين بقوا على قيد الحياة، خاصة وأن المخزن لم يعد قادرا على الإنفاق على الجيش والعمليات العسكرية، بل الانهيار عادة كان يشمل قوته العسكرية نفسها، ولعل هذا ما سرع من وثيرة الانهيار الذي كان يشهده المخزن السعدي؛ "**فبمجرد ما قلت الموارد، التي تضمن استقلال الخزينة عن مؤثرات المجتمع، انهارت السلطة السعدية كما لو كانت بناء من ورق**"[49].

هكذا إذن كانت لأزمات النصف الأول من القرن 17م، من مجاعات وأوبئة، نتائج خطيرة، ساهمت في القضاء على المجهود الذي بذله المخزن السعدي طيلة نصف قرن من الأعمال لبناء اقتصاد ومخزن قويين، فكانت أن تظافرت مع

الصراعات السياسية والقلاقل الاجتماعية، لتجسد لنا بداية مرحلة جديدة في تاريخ المغرب الحديث، فاسحة المجال بذلك لظهور حركات سياسية جديدة، خصوصا وأن تأثير الموت جوعا كان أشد وقعا على الدولة، في إطار سيكولوجية الأهالي ووعيهم، وذلك باعتبار الموت جوعا يضرب شرعية الدولة في الصميم، خاصة إذا كان هناك طرف سياسي مناوئ، يستغل الظرفية التي تمر منها البلاد ليفرض وجوده على الساحة السياسية، كحركة ابن أبي محلي وغيرها[50].

III- جفاف 1661-1662م: جغرافية الأزمة وتوطيد الحكم العلوي.

شكلت مجاعة 1701-1072هـ/1661-1662م أحد العوامل الحاسمة في التحول السياسي الذي شهده مغرب القرن 17م، فقد أنهكت هذه الأزمة القوى المتصارعة على السلطة، وجعلتها تصب في صالح العلويين؛ حيث كانت ضمن أسباب عجز الكيانات السياسية عن المقاومة، وسقوطها تباعا تحت سيطرة المولى الرشيد في ظرف وجيز لم يتجاوز خمس سنوات.

صحيح أن بروز العلويين على الساحة السياسية وافق سياقا تاريخيا[51]، كان يخدم مصالح الدولة الناشئة، غير أن أزمة 1071-1702هـ/1661-1662م ساهمت في تعميق ضعف القوى الأخرى، وهو ما ساعد على توطيد الحكم العلوي والقضاء على المنافسين السياسيين.

لكن كيف يمكن أن نوضح الصلة بين أزمة الجوع التي شهدها المغرب آنذاك، وبين صعود الحكم العلوي؟.

نتلمس طريقا للإجابة على هذا السؤال انطلاقا من البحث في مكونين اثنين: أولا من خلال تتبع جغرافية الأزمة، ومدى اختلاف وقعها على المجالات الجغرافية للمغرب. وثانيا عن طريق البحث في ثقافة الندرة، ودورها في الحد من تأثير الأزمة لدى المجموعات البشرية التي خبرت كيفية التعامل مع مثل هذه المحن. لكن قبل

ذلك يبدو من المفيد البحث في الوضع السياسي للمغرب قبيل الكارثة، باعتبار ذلك محطة مهمة في فهم السياق العام لقيام الدولة العلوية.

1- الوضع السياسي قبيل الأزمة:

ليست غايتنا هنا استعراض الأحداث السياسية التي عرفها مغرب القرن 17م، لكون ذلك من شأنه أن يبعدنا نسبيا عن موضوع بحثنا، بقدر ما نهدف إلى استحضار بعض الملامح العامة للسياق السياسي الذي طبع المغرب قبيل مجاعة 1071-1072هـ/1661-1662م، ورصد أهمية الطواف الذي قام به المولى الرشيد حول مناطق متعددة من المغرب، أثناء فراره من أخيه المولى محمد.

فقد المغرب خلال هذه المرحلة دوره كقوة سياسية في حوض البحر الأبيض المتوسط، بحيث توزعت السلطة فيه بين إمارات وكيانات سياسية متناحرة، كان أهمها؛ الدلائيين في منطقة الأطلس المتوسط وملوية، والسملاليين في سوس، والعلويين بتافيلالت.

ودون الخوض في الواقع السياسي لهذه الإمارات، فإن الاطلاع على الوضع السياسي للمغرب قبيل مجاعة 1671-1072هـ/1661-1662م، يسمح لنا بالخروج بملاحظتين: **أولا**: حالة الضعف التي عرفتها الإمارتين الدلائيةوالسملالية، وهو ضعف جعل وقع الأزمة أكبر على هذه الكيانات السياسية، مقارنة مع الإمارة العلوية.**ثانيا**: أهمية الطواف الذي قام به المولى الرشيد حول مجالات متعددة بالمغرب إبان الأزمة، حيث استطاع من خلاله أن يتعرف على الوضعية المضطربة التي طالت المغرب آنذاك، ولمس عن كتب مظاهر الضعف ومكامن الخلل، مما مكنه من حسم الصراع لصالحه بعد أن تفرد بالسلطة العلوية.

2- جغرافة الأزمة:

نهدف من خلال تناول جغرافية الأزمة، إلى رصد المناطق التي تضررت من جراء الكارثة المناخية الجافة لعام 1671-1072هـ/1661-1662م، والتي يمكن من خلالها تبيان الدور الذي قامت به في إضعاف الخصوم المناوئين للسلطة العلوية.

فالواضح من خلال ما جاءت به الإستوغرافيا المعاصرة، أن المجاعة كانت أكثر وقعا على سكان مدينة فاس، حيث توفي بالجوع اثنا عشر ألفا "**وكلهم له وارث هناك في المدينة يرثه**"[52]، أي أن كل هؤلاء هم من أهل المدينة الأصليين، وهذا رقم مهم ناهيك عن باقي السكان، حيث كانت الخسائر البشرية فادحة[53].

أما زاوية الدلاء، ومنطقة تادلا، فهي الأخرى شهدت نزيفا ديمغرافيا أضعفها من الناحية السياسية، فقد تعددت الوفيات حتى كانت بها في "**كل يوم من أيام مدة شدة الغلاء ما يزيد على مائة جنازة**"[54]. تسمح لنا هذه المعطيات بتصور هول الكارثة على مناطق الشمالية والشمالية الغربية، يشير العياشي كذلك، إلى تعرض كثير من القرى والمداشر في تادلا ونواحي فاس وزاوية الدلاء وملوية، للخراب بسبب ارتفاع عدد الوفيات[55].

في المقابل تفيد الإشارات إلى تأخر حلول المجاعة بالصحراء والواحات الجنوبية، وهو أمر راجع للأسباب التالية:

أ- لأن المجال الواحي هو مجال سقوي، يعتمد أساسا على الزراعات المسقية الممتدة على جنبات الأودية[56]، وبالتالي مكنه هذا المعطى من الصمود لمدة أطول مقارنة مع المجالات البورية الغير سقوية.

ب- لكون النخيل وهو مصدر حيوي لعيش السكان، يمكن أن يصمد إزاء النقص الظرفي للمياه، ويتحمل الجفاف نسبيا أكثر من المزروعات الأخرى[57].

ج- لأن موسم جني المحاصيل يصادف فصل الخريف، ومن ثم فإن سكان الواحات ظلوا يعيشون على مدخر السنة الماضية (1071هـ/1661م)، والذي ينبغي أن يكفي إلى بداية جني المحصول الجديد[58]. وهو ما يفسر كون المجاعة دامت فقط بهذه المناطق مدة أربعة أشهر[59].

وهي أسباب ساهمت في التخفيف من وقع الأزمة على المناطق الواحية، والتي كانت تحت النفوذ العلوي.

الخريطة رقم 3: جغرافية أزمة الجوع إبان مجاعة 1071-1072هـ/1661-1662، وعلاقتها بمجال النفود العلوي.

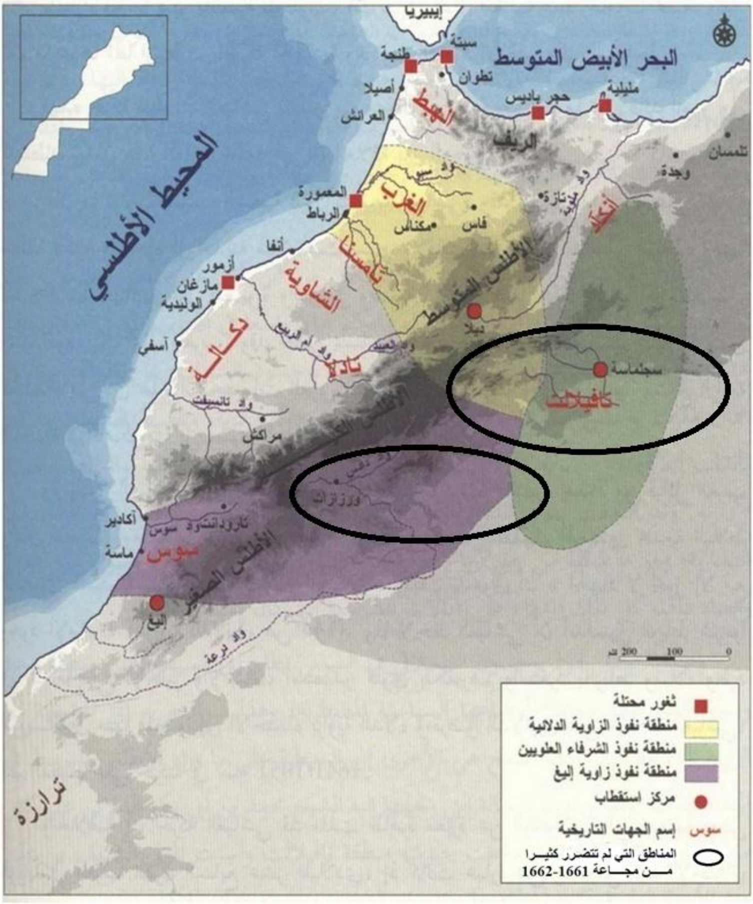

المصدر: القبلي محمد، **تاريخ المغرب تحيين وتركيب**، م.س، ص 396 (بتصرف).

3- ثقافة الندرة

ساهمت ثقافة الندرة في خدمة مصالح أهل الجنوب، الذين يتمتعون بنظام غذائي مكنهم من الصمود ومقاومة هول الكارثة، وهو نظام ناتج عن ثقافة الجوع التي يتمتع بهذا الإنسان الواحي والصحراوي عامة، وتتجسد هذه الثقافة في سلوك الجائع الذي يختلف بالطبع عن سلوك "الشبعان"، أو الذي ألف عيشة البذخ والترف، ومعنى ذلك أن الثقافة الغذائية لدى المجتمعات المهددة بالجوع تختلف

عن المجتمعات التي تجهل محن الندرة، أو التي ألفت ظروفا معيشية لا بأس بها؛ ففي ثقافة الجوع تحضر روح المقاومة ويتعمق الاقتناع بالصبر[60]، وهي قيم إيجابية مرتبطة بثقافة القهر التي تسود في المناطق ذات الإمكانيات الطبيعية المحدودة.

إلى جانب ذلك أكد أحد الباحثين على أهمية ثقافة الجوع[61]، وإلى كون الإنسان الذي يملك هذه الثقافة، يكون جسمانيا أكثر مقاومة للجوع من الذي ألف الرخاء والتنوع الغذائي. لقد مكنت مقاربته البيولوجية لتاريخ التغذية، من تبيان أهمية شظف العيش وطبيعة المأكولات، في فهم تاريخ الجسد ومدى صموده ومقاومته للآفة الجوع، وما يرافق ذلك من إنتاج وإعداد وخزن؛ "**بيولوجيا يعد الإنسان الذي يملك ثقافة الندرة أكثر مقاومة للجوع**"[62]. لقد استطاع السكانتنمية آليات لتدبير الطاقةمن الناحية الفيزيولوجية، نتج عنها تكيف مع الشروط البيئة، وقدرة على تحمل قساوة الطبيعة، وهو ما ذكره ابن خلدون، ذلك أن المجاعة إذا حلت، فإنها تسرع أكثر بهلاك "**المخصبين في العيش المنغمسين في طيباته**"[63]، بينما لا تنال من المتعودين على التقشف وشظف العيش "ما تنال من أولئك ولا يكثر فيهم الهلاك بالجوع..."[64].

لقد ردد الناس الذين عاشوا في ظروف القلة والخصاص قولة عربية شهيرة، تخلص في ما نقوله: "**نحن قوم لا نأكل حتى نجوع، وإذا أكلنا لا نشبع**"[65]، وهو قول يحيل على ظروف الحياة القاسية بسبب الإكراهات البيئية، واقتصاد القلة، وتردد القحوط والمجاعات، ولعل هذا الطرح هو ما يمكننا من افتراض وجود إمكانية للصمود، تمتع بها الإنسان الواحي ضد ظروف القلة التي ألف العيش فيها.

وبالرجوع إلى مجاعة 1071-1072هـ/1661-1662م، يتضح لنا أن الإنسان بالجنوب المغربي، وخاصة الواحي استطاع التكيف مع الصعوبات البيئية، وهو تكيف راجع لطبيعة نمط التغذية الذي يعتمد أساسا على التقشف والزهد، يقول الوزان: "أما غذاؤهم فإن لم يراهم **لا يصدق مدى صبرهم على الجوع**،

ليس من عادتهم أن يأكلون الخبز ولا أي طعام آخر مطبوخ، ويقتاتون على لبن نوقهم...ومادام عندهم اللبن فلا حاجة لهم بالماء لاسيما في فصل الربيع"[66].

كما أن النظام الغذائي لدى الإنسان الواحي يعتمد بدرجة كبيرة على مادة التمر: يقول مارمول كربخال: "وكلها (أي بلاد تافيلالت) محاطة بالنخيل الذي يحمل كمية هائلة من التمر، حتى إنها تغمر بلاد البربر ويعلف بها السكان خيلهم بدل الشعير، **ذلك لأن التمر يشكل ثروتهم الرئيسية"**[67]؛وهي معطيات تفيد طابع التميز الغذائي الذي يعتمد على مادة التمر لدى المجتمعات الواحية مقارنة مع المجتمعات أخرى[68].

هذا فضلا عما يحظى به تخزين الحبوب والمواد الغذائية من عناية فائقة لدى الإنسان المهدد بشيء من الجوع، والخوف، ونقص في المال، ولعل هذا ما يفسر الانتشار الواسع لمخازن الحبوب بالجنوب المغربي[69]، وهي ثقافة جاءت كإفراز لطبيعة العيش ونمطه، القائم على التخوف الدائم، والاحتياط المستمر من هول المجاعة.

كل هذه المعطيات تعد عوامل يمكن من خلالها تفسير تباين درجة وقع الأزمة على المجالات المغربية، وهو وقع كان أكبر على مناطق التي تسيطر عليها القوى السياسية المناوئة لتطلعات السلطة العلوية الناشئة.

وإذا ما أضفنا إلى هذه المؤشرات، ما مارسه الحكام وأدعياء السلطة من ضغوط جبائية على السكان، يمكن أن نستنتج أن حالة الإرهاق المالي كانت فادحة، الشيء الذي ترتب عنه ضعف المداخيل الجبائية للدولة، وهذا ما عرَّض مختلف الإمارات كالدلائيين والسملاليين والشبانات إلى الإفلاس، وجعل الناس يتشوفون إلى الزعيم السياسي الذي يستطيع أن يعيد الأمن والاستقرار للبلاد، خاصة وأن منطقة نفوذ الدولة العلوية تتمركز حول مجال إستراتيجي يتجلى في سيطرتها على تجارة القوافل، واستفادتها من هذا العامل المهم.

هكذا انضافت أزمة 1071-1072هـ/1661-1662مإلى عوامل أخرى، لتفسر السرعة والسهولة اللتين أمكن لمولاي رشيد أن يخضع بهما البلاد، فقد خضعت له الدلاء في 1078هـ/1668م من غير مقاومة، أفلم يكن سقوطها على ذلك النحو بسبب ما وقع فيها من إنهاك؟، بيد أنه لم يجد كذلك من مقاومة ذات بال من غيرها من المناطق، لا من مراكش التي خضعت له في عام 1079هـ/1669م، ولا من إيليغ التي استسلمت له في عام 1080هـ/1670م، فقد كانت منهكة تعجز عن المقاومة، مما سهل على الدولة العلوية توحيد وتوطيد حكمها على المغرب.

وخلاصة القول، أن الأزمات المناخية وما يرافقها من تدهور صحي وديمغرافي، ساهمت، إلى جانب عوامل أخرى، في خلخلة الاستقرار السياسي للبلاد، وفي بروز أسر حاكمة على حساب أخرى، كما أنها شكلت من جانب آخر أحد العوامل التي أفرزت لنا حركات سياسية دينية كالمهدوية، أو تمردات قبلية ضد سلطة الحاكمة، وهي تمردات فرضت على المخزن القيام بعمل جبار للقضاء عليها. وهو ما يجعلنا نربط من جانب آخر **الحَرْكَة السلطانية بالأزمات المناخية**، ولما لا؟، خاصة وأن مسار الحَرْكَة وزمن وقوعها، غالبا ما جاء في سياق معطيات طبيعية فرضت عليها مكانا وزمانا معينين[70]، كما أنها شكلت من جانب آخر مجالا خصبا لفرض سيطرة المخزن الذي يجد في بؤس الرعية، أداة للمحافظة على سلطته، مقارنة بما قد يحدث عند رغد العيش الذي يؤدي إلى انتفاضة القبائل.

---

[1]. لاحظ عدد من الباحثين التزامن الذي يصادف التحولات والقلاقل السياسية

الكبرى وحدوث الأزمات المناخية، وهو تزامن لم يكن من باب الصدفة، وإنما

يكاد يكون من باب العلاقة ما بين العلة والمعلول، ولعل النماذج كثيرة في هذا الباب:

- فقد ساهمت الأزمات الطبيعية بقدر كبير في توتر العلاقة بين السلطة السياسية والرعية في المغرب المرابطي، انظر ما جاء عند جسوس عزالدين: **"الكوارث الطبيعية والأوبئة وتأثيرها على العلاقة بين الرعية والسلطة السياسية خلال حكم المرابطين"**، ضمن أعمال ندوة "المجاعات والأوبئة في تاريخ المغرب"، منشورات ك.آ.ع.إ بالجديدة،مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2004م، ص ص: 53-74.

- كما نبه المغراوي محمد إلى دور الأزمات المناخية في تاريخ الدولة الموحدية، وكيف ساهمت في زعزعة الاستقرار السياسي للدولة، خاصة بعد معركة العقاب التي شكلت بداية نهاية الدولة الموحدية. انظر ما أورده في كتابه: **الموحدون وأزمات المجتمع**، جذور للنشر والتوزيع، ط1، الرباط، 2006م، ص ص: 164-173. يراجع أيضاً ما جاء في مقالة المغراوي محمد: **"المغرب في العصر الموحدي: جدلية القوة والأزمة"**، ضمن أعمال ندوة "المجاعات و الأوبئة في تاريخ المغرب"، منشورات كلية ك.آ.ع.إ بالجديدة، مطبعة النجاح الجديدة، الدارالبيضاء، 2005م،ص ص: 75-104. راجع أيضا: بولقطيب

الحسين، **جوائح وأوبئة مغرب عهد الموحدين**، منشورات الزمن، الرباط، 2002، ص ص: 68-80.

- ونشير كذلك للأزمات التي عرفها المغرب المريني، وكيف ساهمت في إيصال دولتهم إلى السلطة، وتغلبهم على خصومهم من الموحدين، يقول ابن خلدون في هذا الصدد: " انقلبت أحوال المغرب الذي نحن شاهدوه وتبدلت بالجملة، هذا ما نزل بالعمران شرقا وغربا في منتصف المائة الثامنة من الطاعون الجارف الذي يخيف الأمم وذهب بأهل الجيل، ودرست السبل والمعالم وخلت الديار والمنازل **وضعفت الدول والقبائل**"،أنظر: **المقدمة**، دار ابن الهيثم، القاهرة، 2005، ص 53.

- في جانب آخر، أكد استيتو محمد على الدور الذي لعبته الكوارث الطبيعية في التأثير على ميزان القوى السياسية في تاريخ المغرب السعدي، فإذا نجح السعديون في استغلال الأزمات التي عصفت بالمغرب عند بداية حركتهم على حساب الوطاسيين، فإنهم عجزوا أمامها لما تزامنت مع ضعفهم وبداية اندحارهم، أنظر في هذا الصدد أطروحته حول: **الكوارث الطبيعية بمغرب القرن 16م**، دبلوم الدراسات العليا، ك.آ.ع.إ، ظهر المهراز، فاس، 1988، (مرقونة)، ص ص: 345-446.

– أثار البزاز محمد الأمين في كثير من فصول بحثه، وقع المجاعات والأوبئة على السلطة، وكيفية تدخل المخزن للتخفيف من تداعياتها، خاصة وأنها كانت تضرب في صميم مشروعية الدولة، كما نبه إلى دور السلطة المركزية والاستقرار السياسي في مقاومة هذه الأزمات، كما هو الحال بالنسبة لعصر مولاي إسماعيل (1672-1727)، عكس ما كان يقع زمن الاضطرابات الداخلية كما حدث في أزمة الثلاثين سنة (1727-1757)، أنظر كتابه حول: ، **تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر**، منشورات ك.آ.ع.إ بالرباط، سلسلة رسائل وأطروحات رقم 18، ص ص: 35-78.

– والواضح كذلك أن ما شهده مغرب الثمانينات (1981-1983) من سنوات جافة، قد انعكس سلبا على الوضع السياسي للمغرب، والانتفاضات الشعبية التي رافقت هذا التأزم (**انتفاضة الكوميرة** 20 يونيو 1981م) .

[2]. أشار ابن خلدون إلى دور المناخ في انهيار دول وحضارات بأسرها، فقد نبه إلى أن كثرة المجاعات والأوبئة دليل على نهاية عمر الدولة، فيقول: "**ثم إن المجاعات والموتان تكثر عند ذلك في أواخر الدول**"، يراجع: ابن خلدون عبد الرحمان، **المقدمة**، م.س، ص 282.

[3]. حول مفهوم الأزمة ينظر:

Cheddadi (A.), **Le concept de crise dans l'historiographie musulmane**, in **Historiographie et crise**, Etudes historiographiques et culturelles, pub. De la faculté des Lettres et des Sciences humaines-Rabat, série colloques et séminaires n° 34, pp.5-14.

والمدخل الذي وضعه المغراوي تحت عنوان: **"الأزمة والتاريخ تأملات منهجية"**، كتوطئة لدراسته:

المغراوي محمد: **الموحدون وأزمات المجتمع**، جذور للنشر، الرباط، الطبعة الأولى، 2006م، ص ص: 9-17.

[4]. روديريكس برناردو: **حوليات أصيلا، مملكة فاس من خلال شهادة برتغالي**، ترجمة أحمد بوشرب، الدار البيضاء، الطبعة الأولى 2007م، ص 297.

[5]. Ricard (R), **Les portugais et l'Afrique du nord sous le Règne de Jean III (1521-1557) d'après la chronique de Francisco de Andrade**, in Hes., t .XXIV, tri.3 ,1937,p.265.

[6]. المهدي محمد الفاسي، **ممتع الأسماع في الجزولي والتباع ومالهما من الأتباع**، تحقيق وتعليق عبد الحي العمراوي- عبد الكريم مراد، ط 1، 1989م، ص 61

[7]. القدوري عبد المجيد، **ابن أبي محلي ورحلته الإصليت الخريت**، منشورات عكاظ، الرباط 1991م، ص 22.

[8]. « Si la mauvaise alimentation et un brusque déficit énergétique facilitent et provoquant à coup sûr la propagation des maladies ».

B.(نستشف أيضا سوء التغذية خلال هذه المجاعة من إشارة لروديكس(Rodrigues حول طعام قدمه له أحد الأهالي بعد أن اشترى منه ابنته وحفيدته، يقول: "...واشتريت من شخص يسكن خيمة ابنته وحفيدته، دفعت في الأولى اثنين وثلاثين (طوشطاو)، وفي الثانية ثمانية وعشرين، وبعد أن أنهيت دفع ثمن الطفلتين اللتين لا يتجاوز سنهما معا الخامسة والعشرين، دعاني لأكل قليل من لحم الجمل، لكني لم استسغه، وعافته نفسي"، فبالانتباه إلى تحديد روديكس لنوع الطعام، لحم الجمل، ووصفه له بكونه معيف عافته نفسه فلم يستطع التذوق منه يمكن أن نفترض أن اللحم إما أنه من اللحوم التي تخزن لمدة طويلة (القديد)، أو أنه لجيفة ذلك أن الفترة فترة جفاف ومجاعة حادين جدا لم تستثني البشر والدواب من الموت، وذلك هو المرجح إذ يستبعد جدا أن يكون الجمل ذبح حديثا للاستفادة من لحمه، خاصة وأنه في مثل هذه الظروف تنتشر ظاهرة أكل الجيف.

Lumeau (J. de) et Lequin (Y), (sous la direction), **Les malheurs des temps**, **Histoire des fléaux et des calamités en France**, Larousse, 1987, p. 151.

برناردو روديكس، **حوليات أصيلا** ...، م.س، ص 299.

[9]. "سنة سيئة المحاصيل نادرا ما تنجم عنها مجاعة خطيرة أو نفاذ مخزون المؤن، لكن إذا توالى الجفاف وتوال معه سوء المحصول أو انعدامه فإن ذلك يؤدي حتما إلى مجاعة شديدة تترتب عنها انعكاسات أخرى".

Rosenberger (B), **Culture Complémentaire et nourriture de substitution au Maroc : XVe-XVIII siècle**, in Annales., n° 3-4, 1980, p. 481

[10]. روديكس برناردو ، **حوليات أصيلا**...، م.س، ص 327.

[11] . "Cette misère si grande fut suivie de la plus grande de toutes, une épidémie qui emporta beaucoup de ceux qui, grâce â leur prévoyance ou a du blé caché ; avaient échappé aux rigueurs de la famine "

Sousa(l.de), **Les Portugais et l'Afrique du Nord de 1521 à 1557**, **extrait des** « **Annales de Jean III** » Traduction française avec introduction et commentaire par Robert Ricard, éd.Les belles lettres, Paris, 1940, p. 26.

[12] . "ففي سنة 1522م ابتدأت مجاعة كبيرة بكل إفريقيا، نتيجة للجفاف الذي عرفته السنة السابقة لها".

Sousa (l.de), **Les Portugais ...**,Op.cit. p. 25.

[13] . "كان بالمغرب غلاء عظيم ومجاعة مفرطة ووباء جارف ولم ينزل في هذه السنة (927هـ)نقطة مطر، ودخل سادتنا الشرفاء مراكش". ابن القاضي أحمد المكناسي، **لقط الفرائد من لفاظة حقق الفوائد، ضمن ألف سنة من الوفيات**، تحقيق محمد حجي، الرباط،1976م، ص927.

[14] . الناصري أحمد، **الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، 9 أجزاء، تحقيق جعفر الناصري- محمد الناصري، ج4، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1955م، ص 125.

[15] . رودريكس برناردو، **حوليات أصيلا** ...، **م س**، ص 300.

[16] . ابن القاضي أحمد، **لقط الفرائد** ...، م.س، ص927.

[17]. دييكو دي طوريس، **تاريخ الشرفاء**، م.س، ص 64-65.

[18]. المصدرنفسه، صص: 64-65.

[19]. "فقد ماتت الآلاف منهم (من المغاربة)، ولاسيما في مملكتي فاس ومراكش المجاورتين لنا، بسبب انعدام وسائل وإمكانات جلب الأقوات من الخارج...". رودريكس برناردو ، **حوليات أصيلا** ...، م.س، ص 297.

[20] .Cette misère si grande fut suivie de la plus grande de toutes, une épidémie qui emporta beaucoup de ceux qui, grâce â leur prévoyance ou a du blé caché ; avaient échappé aux rigueurs de la famine ". Sousa(l.de), **Les Portugais ...**,Op.cit, p.26.

[21]. " فحين نزل الوباء هناك، وكثر الموت وكان الأمر عظيما إلى الغاية يفر المرء من أقاربه، خرج من مراكش وذلك عام 932هـ فنزل في تامدولتبأقا ستة أشهر فاشتغل هناك باستخراج المعادن فيها".

علي بن الحسين، **روضة التحقيق في ذكر مناقب أبي بكر الصديق**، عند المختار السوسي، **المعسول**، ج 7،مطبعة النجاح، الدار البيضاء، 1963م، ص40.

[22]. المختار السوسي، **المعسول**، ج 7 ، ص42.

[23]. رودريكس برناردو، **حوليات أصيلا** ...، م.س، ص 300.

[24]. "ثم بعد سنتين أقام فيها الأمير في تامدولت رجع إلى الحمراء ومعه قبائل تكنة وحربيلوأمربيض وسلام والأدارسة والعرب الكثيرون المعافرة والسباعيين وغيرهم". المختار السوسي، **المعسول**، م.س، ص 42.

[25]. "...كما أن الشريف استغل تلك الظروف العصيبة وتحكم في مراكش،...وقد وجد تلك المدينة الذائعة الصيت شبه مقفرة...". رودريكس برناردو، **حوليات أصيلا** ...، م.س، ص 300.

[26]. الوزان الحسن، **وصف إفريقيا**، م.س، ج 1، ص 198.

[27]. المصدرنفسه، ص 215.

[28]. دي طوريسدييكو، **تاريخ الشرفاء**، م س، صص: 64-65.

[29]. زبير لوبنى، **الماء والحرب**...، م س، ص 41.

[30]. Rosenberger (B.), Triki (H.), **Famines et épidémies au Maroc…**,Op.cit, p.143

[31]. يعقوب بن الغربية Aco Bengarba، من المغاربة المتحالفين مع البرتغال كان يقوم بعمليات نهب وأسر للمغاربة غير المتعاهدين، اغتنى كثيرا من مجاعة

1521م، فحين اضطر إلى الفرار من أزمور واللجوء إلى الشريف سنة 1523م ترك بالمدينة الغربية 40000 كروزادو ما يعادل 16000000 ريال برتغالي.

Cenival (P. de), S.I.H.M., 1er série, Portugal, t.II, 1er partie, p. 319.

بوشرب أحمد، **دكالة والاستعمار البرتغالي إلى سنة إخلاء اسفي وأزمور (قبل 28 غشت 1481– أكتوبر 1541م)**، الطبعة الأولى 1984م، ص 260.

[32]. Cenival (P. de), S.I.H.M., 1er série, Portugal, t.II, Op.cit, p321.

[33]. التمنارتي أبو زيد عبد الرحمان بن أحمد، **الفوائد الجمة في إسناد علوم الأمة**، إعداد محمد بن عبد الله الروداني، وتحقيق اليزيد الراضي، مطبوعات السنتيسي، الدار البيضاء، ط1، 1999، ص 328.

[34]. أرجع كريم عبد الكريم أزمة المخزن السعدي لعوامل سياسية تتجلى أساسا في **مشكل ولاية العهد**، يراجع: كريم عبد الكريم، **المغرب في عهد الدولة السعدية، دراسة تحليلية لأهم التطورات السياسية ومختلف المظاهر الحضارية**، ط 2، 1978، ص ص: 328-336.

[35]استيتو محمد، **الكوارث الطبيعية**...،م.س، ص ص: 346-407.

[36]Rosenberger B et Triki H : « **Famines et épidémies**... », Op.cit, Vol XV,1974, p 77.

[37]. استيتو محمد، **الكوارث الطبيعية**...،م.س، ص 397.

[38].اليفراني محمد الصغير، **نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي،** تقديم وتحقيق عبد اللطيف الشاذلي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط 1، 1988، ص 180.

[39]Rosenberger B et Triki H : « **Famines et épidémies**... », Op.cit, Vol XIV, 1973, p 113.

[40] أنظر: العرجاوي كريم،**المطر بين الوفرة والندرة: مساهمة في دراسة تاريخ المناخ بمغرب القرن 17م**، بحث لنيل شهادة الماستر، جامعة القاضي عياض، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مراكش، 2013-2014، (مرقون)، ص ص: 66-72.

[41] حول النتائج الاقتصادية والاجتماعية للأزمات المناخية يراجع: العرجاوي كريم، **المطر بين الوفرة والندرة**...،م.س، ص ص: 97-154.

[42]. جاء عند أخبار العائلة اليهودية: "ليس هناك يوم إلا ويموت فيه عشرة أو عشرون شخصا بالمجاعة"، أنظر: **كتاب التواريخ أو تاريخ فاس**، تأليف أخبار

من عائلة أبن دنان الغرناطيةالفاسية، ترجمة عن العبرية عبد العزيز شهير، منشورات جمعية تطاوون أسمير، ط1، 2002، ص 17،

[43].Rosenberger B et Triki H : « **Famines et épidémies**... », Op.cit, Vol XV, 1974, p 9.

[44]. نبه أحد الباحثين إلى العلاقة بين المسألة الديمغرافية وقيام أو انهيار الدول، واستنتج أن الميزة الأساسية للوضع الديمغرافي خلال هذين الفترتين، هو سيادة طابع النقص والتراجع في عدد السكان، أنظر: القادري بوتشيش إبراهيم: "**أثر قيام الدول وسقوطها في التطور الديمغرافي بالمغرب في العصر الوسيط (دراسة حالة)**"، ضمن مجلة كنانيش، منشورات ك.آ.ع.إ، وجدة، ع 1، صيف- خريف 1999، ص ص: 40-52.

[45] شقير محمد، **تطور الدولة في المغرب – إشكالية التكون والتمركز والهيمنة – من القرن الثالث ق.م إلى القرن العشرين**، إفريقيا الشرق، الدارالبيضاء، ط2، 2006، ص 62.

[46]جغلول عبد القادر، **مقدمات في تاريخ المغرب العربي القديم والوسيط**، ترجمة فضيلة الحكيم، دار الحداثة، ط1، 1982، ص 77.

[47]استيتومحمد، **الفقر والفقراء...**،م.س، ص 123.

[48] شقير محمد، **تطور الدولة في المغرب**...، م.س، ص 102.

[49]. العروي عبد الله، **مجمل تاريخ المغرب**، ج2، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 2009، ص 474.

[50] ننبه إلى الدور الأساس الذي لعبته الأزمات المناخية في بلورة مهدوية ابن أبي محلى، ولعل هذا ما جعلنا نتساءل في محطات سابقة حول العلاقة بين الكارثة الطبيعية والمهدوية، خاصة وأن ظهور ابن أبي محلي جاء وسياق الأزمة التي طبعت وضعية المغرب خلال تلك الفترة، مما يفرض وجود ارتباط عضوي بين المهدوية والفعل السياسي، في سياق شروط تتسم بالأزمة غالبا، فضعف السلطة المركزية، والضائقة الاقتصادية المتجلية في القحوط والأوبئة، وما يترتب عن ذلك من خوف، كلها عوامل أغرقت البلاد في الفوضى والفساد، وهي شروط خصبة لظهور المهدوية. يراجع: العرجاوي كريم، **المطر بين الوفرة والندرة**...،م.س، ص ص: 190-194.

[51] شكلت منطقة تافيلالت محط أطماع عدد من المتنافسين السياسيين، كالدلائيين والسملاليين، في الوقت الذي كان فيه الأشراف العلويين يعملون على تركيز وجودهم بالمنطقة، خاصة مع مبايعة أهل تافيلالت للمولى الشريف سنة 1040هـ/1631م، ثم بيعة ابنه المولى محمد سنة 1050هـ/1640م، حيث ستبدأ الإرهاصات الأولى لتحول الزعامة العلوية بتافيلالت نحو النشاط السياسي

والسعي لتوحيد البلاد. (أنظر في هذا الصدد: الناصري خالد، **الإستقصا**...، ج7، م.س، ص ص: 13-15)، وفي مقابل ازدياد قوة العلويين وتناميها في المنطقة الشرقية من المغرب الأقصى، بدأ نفوذ باقي الزعامات الأخرى في التراجع، إذ انهار الحكم السعدي بمراكش، في حين أن خليفة أبي حسون السملالي سيدي أوعلى لم يستطع الحفاظ على نفوذ إمارته بالمناطق الواحية، وفقد الدلائيون سيطرتهم على الشمال والغرب، لتصبح البلاد على "حالة من الوهن الاقتصادي والفوضى الاجتماعية والتمزق السياسي، مما جعلها مهيأة أكثر من أي وقت مضى لقبول طاعة من استطاع القضاء على مختلف هذه القوى المنهارة"، أنظر ما جاء عند:القبلي محمد، **تاريخ المغرب تحيين وتركيب**، منشورات المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب، الرباط، 2011، ص 401.

[52]. العياشي عبد الله بن عمر، **الإحياء والانتعاش في تراجم سادات زاوية آيت عياش**، مخطوط الخزانة العامة بالرباط، عدد د1433، ص 256.

[53]. يقول العياشي: "وأما جملة من مات فيها من غير أهلها ممن كان يريد المدينة، فقد تعارضت فيه الأخبار وتخالفت، فمن بين قائل يقول أربعة وعشرين ألفا، ومن بين قائل يزيد على ذلك زيادة كثيرة تكاد في العقل تكون من المحال". المصدر نفسه، نفس الصفحة.

[54]. ما يؤكد كذلك شدة الفراغ السكاني بالمنطقة استحالة انعقاد سوق المدينة، الذي أصبح معطلا، ليقوم الناس بعمليات الدفن، فقد ارتفع عدد الموتى حتى تعذر على الناس دفن موتاهم، بعدما صاروا غير قادرين على غسلهم، بل لقد تركوا الصلاة عليهم، مما يدل على أن عدد الوفيات كان مرتفعا جدا. أنظر المصدر نفسه، نفس الصفحة.

[55]. نفسه، ص 257.

[56]. أكد قسطاني بن محمد على رسوخ الثقافة الزراعة القائمة على السقي بالمجتمع الواحي منذ عصور غابرة في القدم، راجع كتابه حول: **الواحات المغربية قبل الاستعمار –غريس نموذجا-**، م.م.م.ث.أ، الرباط، 2005، ص ص: 39-42.

[57]. عمالك أحمد: "**الأزمة وتوطيد الحكم المركزي مجاعة عام 1071-1072 نموذجا**"، ضمن أعمال ندوة المجاعات والأوبئة في تاريخ المغرب ك.آ.ع.إ، الجديدة، ص ص: 272-288.

[58]. لعل هذا ما جعل المناطق الواحية مقصدا للسكان الفارين من المجاعة، القادمين من المناطق الداخلية، أنظر: العياشي عبد الله بن عمر، **الإحياء والانتعاش**...،م.س، ص 252.

[59]. تحدث الوزان عن الأخطار والأضرار التي كانت تسبب فيها الأمطار في فصل الخريف على النخيل ومحاصيله، يقول في هذا الصدد: "وإذا هطل المطر في شتنبر فسد معظم الثمر، وكانت الغلة مزرية، وتحتاج جميع أراضي نوميديا (الجنوب الشرقي) إلى السقي لكي تزرع...**وعندما ينحبس المطر تجود غلة التمر**"، أنظر: الوزان حسن، **وصف إفريقيا**، ج1، م.س، ص 65.

[60]. أيت لفقيه لحسن: "**فصول من ثقافة الجوع**..."، م.س، ص ص: 22-27.

[61].Houbaida M, **Le Maroc végétarien**, **15e–18e siècles**. **Histoire et biologie**, Edition Wallada, Casablanca, 2008, p 90.

[62]Houbaida M, **Le Maroc végétarien…**, Op.cit, pp: 41-49.

[63]. ابن خلدون، **المقدمة**، م.س، ص 89.

[64]. المصدر نفسه، نفس الصفحة.

[65]. حبيدة محمد، "**الخبزيون في المغرب**"، ضمن مجلة زمان، ع 5، 15 فبراير-15 مارس، 2014، ص 47.

[66]. الوزان حسن، **وصف إفريقيا**، ج1، ج.س، ص 48.

[67]. كربخالمارمول، **إفريقيا**، ج2، م.س، ص 44.

[68]. نجد بالزاوية الدلائية مثلا إسرافا كبيرا في تناول الطعام، يقول القادري في هذا الصدد: "وكان (أي محمد ابن أبي بكر الدلائي) آية باهرة في إطعام الطعام للأضياف وغيرهم، وكانت له برمة أقل ما قيل أنها تسع من اللحم بقرة أو ثور وكسكاسها، أكثر من وسق دون ما يخص به العطايا. أنظر ما جاء في كتابه:**التقاط الدرر ومستفاد المواعظ والعبر من أخبار الحادية والثانية عشر،** جزآن، تحقيق هاشم القاسمي العلوي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، بيروت، 1983، ج2، ص 104.

[69]. للتوسع أكثر حول هذه المخازن أنظر :

- Zainabi A T : « **Les magasin collectifs du JbelSirwa** », In Les Igoudar : Un Patrimoine Culturel à Valoriser, publication de l'Institut Royal de la Culture Amazighe Centre des Etudes Historiques et Environnementales, Rabat, 2009, pp : 201-216.

[70]. اللافت للانتباه أن معظم الحركات السلطانية جرت خارج المواسم المطيرة، لأن الجيوش قد تصبح عرضة لمداهمة العواصف والسيول أو الثلوج، ولعل هذا ما يفسر فشل كثير من الحملات، وتعرض الجيش لأهوال شديدة عندما يتحرك في الفصول المطيرة" أنظر مقالة استيتو محمد: "**الماء والحرب في تاريخ المغرب: أية علاقة؟**"، ضمن أعمال ندوة: الماء في تاريخ المغرب، منشورات ك.آ.ع.إ، عين الشق، الدار البيضاء، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، صص: 175-190، وأيضا الفصل المخصص للماء وتنظيم المجال الحربي ضمن دراسة : لوبنى زبير، الماء والحرب...، م س، صص 73-117.